الفصل السابع

عصر الطوكوجاوا يسير نحو النهاية

١ - عصر الشوجون المتقاعد - أوجو شو

بعد فشل ثورة كانسى الإصلاحية وتقاعد مفجرها المستشار ماتسودايرا سادانوبو فى عام ١٧٩٣م حاول عدد من المستشارين بقيادة ماتسودايرا نوبو أكيرا Matsudaira Mobuakira (١٧٦٠م - ١٨١٧م) السير على خطى سادانوبو، وذلك بمواصلة عملية تعمير جزيرة إيزوتشى Ezochi وهو اسم جزيرة هوكايدو قبل عصر ميجى، وكذلك كان لجعل هذه الجزيرة تحت الإدارة المباشرة لحكومة الباكفو أن أنفقت أموالا طائلة من أجل ذلك.

كذلك وبسبب النفقات التى صرفتها الباكفو من أجل زواج أنجال الشوجون الحادى عشر إيينارى الكثيرين (٢٨ ابنا و٢٧ ابنة) والذين مات نصفهم قبل أن يبلغوا العشرين من عمرهم، كان لهذه النفقات أثرها السيء فى اقتصاد الباكفو، ومن أجل ذلك وبحلول عام ١٨١٨م الذى يوافق العام الأول من عهد بونسى Bunsei، وبتولى المستشار ميزونو تادا أكيرا Mizuno Tadaakira (١٨٦٢م - ١٨٣٤م) فقد تغيرت سياسة الباكفو تغيرا شديدا، وبدأت فى سك العملات المعدنية بكميات كبيرة، الأمر الذى أنعش اقتصاد الباكفو، ولكنه فى ذات الوقت أدى إلى رفع الأسعار بدرجة شديدة خاصة أن معظم هذه العملات كانت رديئة الصنع.

ومما يروى كذلك عن الإسراف فى عهد الشوجون إيينارى أن كمية السكر المستخدمة من أجل صنع الحلوى لمثل هذا العدد الكبير من أنجال الشوجون وغيرهم من الحاشية تعدت الستمائة كيلو جرام يوميا ، وكان هذا النوع من السكر يعتبر من المواد غالية الثمن جدا .

فى عام ١٨٣٧م تنازل الشوجون الحادى عشر إيينارى عن منصب الشوجونية لأخيه إيبى يوشى Ieyoshi (١٧٩٣م – ١٨٥٣م) الذى تولى هذا المنصب حتى وفاته فى عام ١٨٥٣م، ولكن وبرغم تنازل إيينارى عن الحكم إلا أنه ظل يحكم ويقبض بإحكام على مقاليد الحكم حتى وفاته فى عام ١٨٤١م، وهذه الفترة تسمى فى التاريخ اليابانى بعصر أوجوشو Ogosho وهى صيغة الاحترام للقب الشوجون المتقاعد، وقد أطلقت هذه الكلمة على أربعة من الشوجونات فى عصر إيدو، وأشهر هؤلاء الأربعة الشوجون الأول طوكوجاوا إيياسو، وهو مؤسس عصر إيدو أو عصر طوكوجاوا، وكذلك ابنه هيدى تادا ثم الشوجون الثامن العظيم يوشى مونى والرابع هو الشوجون الحادى عشر إيينارى، هؤلاء الأربعة تنازلوا عن منصب الشوجون وهم أحياء وأطلق عليهم جميعا لقب أوجوشو ولكن ما ميز عصر الشوجون الحادى عشر عن غيره من الشوجونات الثلاث الآخرين الذين ذكرناهم للتو، هو اشتهاره مع عصرى الجنروكو وتانوما بالحياة الناعمة المترفة، وكذلك تميزت هذه العصور الثلاثة بأن كلاً منها جاء عقب فترة متشددة سواء عسكرياً أو سياسيا أو اجتماعيا وكذلك اقتصاديا، فعصر الجنروكو جاء بعد تطبيق الباكفو لسياسة عسكرية متشددة وذلك فى الفترة الأولى من عصر إيدو، وعصر تانوما جاء بعد تطبيق إصلاح كيوهو المتشدد اقتصاديا وعسكريا

على يد الشوجون الثامن يوشيمونى فى الفترة ما بين عامى ١٧١٦م حتى ١٧٤٥م، أما عصر الشوجون المتقاعد إيينارى فقد جاء بعد تطبيق إصلاح كانسى على يد المستشار الحازم ماتسودايرا سادانوبو، وبدت ممارسات هذا العصر أو بالأحرى هذه الفترة التى لا تتعدى خمس سنوات من ليونة وترف وكأنها تتحرر من قسوة وشدة إصلاح كانسى ، وقد عكست حياة الأهل مدينة إيدو خصائص هذا العصر المترف.

ومما زاد من تعمق هذا الترف أن مدينة إيدو كان قد وصل عدد سكانها آنذاك إلى ما يزيد على مليون نسمة، أى إنها أصبحت مدينة مليونية فى وقت مبكر من القرن الثامن عشر، فى حين أن عدد سكان لندن لم يزد حينئذ على سبعمائة ألف نسمة وباريس لم يزد عدد سكانها على نصف مليون نسمة ، أى إن إيدو كانت أكبر مدينة سكانية فى العالم، وقد احتل المدنيون من هذ العدد الكبير النصف تقريبا.

وكان وضع المدنيين فى تلك الفترة قد أوصلهم لأن يكونوا منافسين وأندادا للساموراى، ولما كان من أهم خصائص حياة المدنيين الحرية فى تصرفاتهم فقد اتسمت حياتهم بالانطلاقة والبهجة، وكان أكثر ما عكس هذه الانطلاقة لأهل إيدو عيدين كبيرين هما عيد معبد كاندا ومعبد أساكوسا Asakusa وكانت العربات المزينة المعدة خصيصا لهذين العيدين تستطيع الدخول إلى حرم قلعة إيدو فى فترة الاحتفال بهذين العيدين.

ولم يقتصر تمتع أهل إيدو بالحياة بهذين العيدين فقط، بل كان لكل فصل من فصول السنة متعته الخاصة به، ففى الربيع كان التمتع بزهوره الرائعة، وفى الصيف كانوا يتمتعون بنزهة وقت الغروب والألعاب

النارية ليلا، وفى الخريف كانوا يتمتعون بالتنزه بين أشجاره ذات الأوراق الحمراء، وأما الشتاء فكانت متعته تتمثل فى مشاهدة الجليد الناصع البياض، وفى الحقيقة أن اليابانيين ما زالوا يتمتعون بنفس هذه المظاهر الطبيعية حتى الآن، إلا أن يابانيى عصر إيدو كانوا أكثر تمتعا بها، وذلك لأنهم كانوا بالطبع أكثر التصاقا بالطبيعة عن يابانيى العصر الحديث.

ولم يتمتع اليابانيون فى عصر أوجوشو بالطبيعة فقط، ولكنهم تمتعوا بغذاء أشهى وملبس أكثر أناقة مما سبق، وأقدموا على تعلم مهارات حياتية جديدة بالنسبة لعامة الشعب مثل التدريب على الخط اليابانى التقليدى والتمرين على عزف مختلف الآلات الموسيقية التقليدية، وكذلك قراءة الكتب حتى انتعشت مكتبات إعارة الكتب.

إن كاتب هذه السطور يستطيع أن يجزم بأنه عايش مثل هذه التجربة بحذافيرها إبان دراسته باليابان خلال عقد الثمانينيات من القرن العشرين، حيث شارك بنفسه فى إحدى فعاليات نشاط اليابانيين فى مختلف أنشطة الحياة، وكان ذلك من خلال تعليم اليابانيين للغة الإنجليزية، وكانت اللغة الإنجليزية هى من أكثر الأنشطة التى اجتذبت اليابانيين آنذاك، ونستطيع أن نضيف إليها الأنشطة التى ذكرناها توا والتى مارسها اليابانيون خلال عصر الشوجون المتقاعد إيينارى أو عصر الأوجوشو، وكأن التاريخ يعيد نفسه بصورة طبق الأصل تقريبا.

٢ - ثورة هيهاتشيرو

بعد انتهاء فترة بونسى التى اتسمت بكثير من الترف والدعة جاءت فترة تنبو Tenpo التى بدأت عام ١٨٣٠م حتى عام ١٨٤٤م، والتى

تميـزت بكوارثها ومجاعاتهـا وثوراتها أيضـا. ولم يتوقف خلال هذه الفترة الكسـاد الذى كان يحدث كل عـام تقريبا. ففى عامى ١٨٣٢م، ١٨٣٣م (العام الثانى والثالث من تنبو) هبط المحصول السـنوى إلى أقل مـن النصف عن المقدار العادى لكل عام، ممـا أدى إلى حدوث مجاعة تنبـو الرهيبة. وخلال هذه الفترة ارتفعت بشـكل جنونى أسـعار الأرز وراح ضحية هذه المجاعـة الكثير من الضحايا. وبذلت الباكفو قصارى جهدهـا من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه . وقامت بمسـاعدة وإنقاذ أكثر مـن سـبعمائة ألف مواطن. وبرغـم ذلك لم تسـتطع تجنب الهوجات وحوادث السـلب والنهب التى بلغ عددها فى السـنة الواحدة ما يزيد علـى المائة. وقد وصل عدد هوجـات الفلاحين ذروتها خلال فترة تنبو وذلك على مدار عصر إيدو بأكمله والذى امتد لأكثر من مائتين وسـتين عامـا. وأصبحت هذه الثورات والهوجـات وحوادث العنف هى بمثابة النعش الذى سـيدفن فيـه عصر الطوكوجاوا. ومنذ فـترة تنبو بدأ العد التنازلى لهذا العصر الطويل.

وفى مدينة أوسـاكا لم يكن الحال بأفضل من إيدو أو المدن الأخرى بل ربما زاد كارثية بممارسات التجار الأغنياء الذين كانوا يشترون الأرز بكميات كبيرة ويقومون بتخزينه ثم يعاودون بيعه بأسـعار مغالٍ فيها. وبذلك كانـوا يحققون أرباحا خيالية. وبرغم محاولة محافظة أوسـاكا اتخاذ سياسة إسعاف وإنقاذ الفقراء. إلا أن نقص كمية الأرز لم يساعدها كثـيرا نظرا لإرسـال كميات ضخمة منه إلى إيـدو وبناء على توجيهات وأوامر الباكفو.

فـى هـذه الأثنـاء ظهـر رجـل يدعـى أوشـيو هيهاتشـى رو Ōshio Heihachirō (١٧٩٣م – ١٨٣٧م) كان يعمل فى وظيفة تشبه الآن عمل رئيس مباحث المدينة وهو فى ذات الوقت عالم كنفوشى ولكنه كان يتمتع بصفات الرجل الشـهم الشـجاع الذى يحب مساعدة الفقراء والمكروبين، فقام ببيع ما لديه من كتب فى خزائنه وذلك من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المواطنين.

ولم يكتف هيها تشيرو بمساعدته المادية للمكروبين بل إنه فى فبراير من عام ١٨٣٧م حرك تلامذته ومريديه الذين كانوا يدرسون فى مدرسته الخاصة التى كان قد افتتحها من أجل تعليم الكونفوشيوسـية الجديدة، وكذلـك قـاد العامة من النـاس من أجل الثـورة على حكومـة الباكفو والمسئولين فى أوساكا، وفى يوم اشتعال ثورته قام بتوزيع منشورات فى كل نواحى المدينة يدعو فيها المواطنين للانخراط فى الثورة، وكذلك قام تلامذتـه والفلاحون برفع أعلام كبيرة كتـب عليها «نجدة الناس»، ثم قاموا بإشـعال النيران فى محال التجار الكبار مثل كونوإيكى وتننوجى وهيرانو وميتسـوى وغيرها من المحال التجارية الكبيرة والشـىء المثير للإعجـاب أن هيها تشـيرو كان فى مقدمة هؤلاء الثوار، وقد اسـتخدم هيها تشـيرو وثواره مدافع ضخمة فى ضرب أهدافهم من محال التجار وقصورهم وبيوتهم.

ولكـن هذه الثورة تم قمعها من جانـب الباكفو فى نصف يوم فقط، إلا أن حصيلة الخسـائر كانت فادحـة، فقد احترق ما يزيد على ثلاثة آلاف وثلاثمائـة بيت ومبنى، وتم القبض على الكثير من الثوار وعوقب بالصلب عشـرون شخصا وبالسجن سبعة عشـر شخصا وبالإعدام ثلاثة

أشـخاص، ولكن علـى الرغم من أن ثورة هيها تشـيرو كانت من أجل الجيـاع والمكروبين إلا أن آلام الكثير من الناس بسـبب احتراق بيوتهم جعلـت الكثير منهم يكرهون هـذا الثائر من أجل أن يصل الأرز إلى كل الناس فقرائهم قبل أغنيائهم.

وهكـذا قُمعـت ثورة قـام بها أحد أعيـان مدينة أوسـاكا من أجل فقرائهـا، ثورة تحمل فـى طياتها نكهة اشـتراكية تهاجم الأغنياء من أجل الفقراء، ولكنها للأسـف أخذت مسلكا عنيفا أدى إلى قمعها بشدة من قبل الباكفو، وكان لعنفها أيضا نتيجة سـلبية نحو مفجرها أوشـيو هيهاتشيرو ، حيث تسبب احتراق وضياع الكثير من البيوت إلى كراهية الكثير من مواطنى أوسـاكا لهذا الرجل الـذى لو لم تؤد ثورته لكل هذا الدمار لكان له موضع آخر أجل وأعظم فى تاريخ اليابان، ولكنه للأسف مات منتحرا وهو لا يزال فى الرابعة والأربعين من عمره، ولكن على أية حال أصبحت هذه الثورة تمثل حلقة من سلسـلة الضربات التى تلقتها الباكفـو والتى هزت صورتها بعنف لكى تؤدى فى النهاية إلى سـقوطها بعد ثلاثين عاما فقط من هذه الأحداث الجسام.

ويبدو أنه بسبب قوة مبادئ ثورة هيها تشيرو أنها لم تنته بإخمادها، ولكنهـا أوجدت ثورات وهوجات أخرى تأثرت بهـا ، وقام بها أتباع وتلاميذ هيها تشـيرو، ففى يونيو من نفـس العام (١٨٣٧م) قامت ثورة بقيـادة إيكوتا يوروظو Ikuta Yorozu (١٨٠١م – ١٨٣٧م) فى مقاطعة إتشـيجو (محافظة نييجاتا) وأطلق على هذه الثورة اسـم «ثورة أوشـيو الصغيرة» وقد تعلم يوروظو علم اللغة على يد أسـتاذ علم اللغة اليابانية هيراتا أتسوتانى Hirata Atsutane (١٧٧٦م – ١٨٤٣م) وكلاهما كانا

يعتقدان بشدة فى وجوب احترام الإمبراطور. وعلى العكس كانا يضمران العداء للباكفو. ومن هنا بدأ مبدأ توقير الإمبراطور يتعاظم وذلك مع كثير من الانتقاد للباكفو وسياستها.

على رغم مئات الأميال التى تفصل كلاً من أوشيو فى أوساكا عن يوروظو فى مقاطعة نييجاتا. فعندما وصلت الأخبار إلى الأخير تحمل فى ثناياها ثورة أوشيو قام على الفور يوروظو وأكثر من عشرة من تلاميذه بتحطيم محال التجار الأغنياء وهاجموا مخازن الوكالات التجارية. ولكن خارت قوى إيكوتا فى النهاية ولم يجد أمامه سوى الانتحار. وتكررت مثل هذه الثورات التى حاولت التشبه بثورة هيهاتشيرو وذلك فى قرية نوسى Nose بمنطقة ستو تحت اسم «أعوان أوشيو» وحتى فى إيدو نفسها نشبت هوجة لقبت بـ. «حزب أوشيو» وهذه الهوجات والثورات أحدثت مناخا من عدم الاستقرار.

وحاولت الباكفو تدارك الأمر فقامت بإنشاء ما أطلق عليه «عشش الإنقاذ» لإعطاء المنكوبين من خلالها الأرز وكذلك إعطائها الفقراء بعض النقود. وعليه تم إسكات وإيقاف هذ االتدمير أخيرا.

هكذا وجدنا أن أكثر أسباب الثورات وأهمها كان حدوث المجاعات والفقر المدقع ولكن يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم تساؤل هو لماذا كانت المجاعات تحدث بكثرة خلال عصر إيدو. فقد تحدثنا عن ثلاث مجاعات كبرى فيما خلا من الأحداث وهى مجاعات كيوهو وتنمو وتنبو وكانت قسوة وشدة هذه المجاعات تصل إلى أبعد المدى لدرجة أن بعض الرحالة والمسافرين يذكرون فى مذكرات رحلاتهم أنهم كانوا فى بعض الأحيان لا يجدون فى قرى بعينها إلا الهياكل العظمية لضحايا المجاعات ولم

يجدوا أثرا لأحياء فى هذه القرى، وفى بعض الأماكن شاهدوا من يأكل لحم الموتى وأنهم اضطروا أيضا لفعل ذلك نظرا لعدم وجود طعام يأكلونه على الإطلاق.

إذن فقد كانت هذه المجاعات قاسية إلى أبعد الحدود على الفلاحين وغيرهم من سكان المدن الفقراء ولكن الغريب أنه لم يُذكر أنه وجد محارب واحد مات جوعا مما كان له الأثر السيئ على الفلاحين ربما لاعتقادهم بأنه ليس هناك أى نوع من العدالة الاجتماعية، وذلك ما أدى إلى قيامهم بالهوجات والثورات الكثيرة والتى يصل عددها فى عصر إيدو إلى ٢٨٠٠ هوجة وثورة بواقع من ١٠ - ١١ هوجة وثورات فى العام الواحد وذلك لامتداد عصر إيدو لحوالى مائتين وثمانين عاما.

ونعود للإجابة عن السؤال الذى طرحناه فى بداية الفقرة، فقد كانت أسباب المجاعات عديدة وأولها وأهمها هو الظواهر المناخية السيئة من رياح شديدة عاتية أو فيضانات كاسحة، ولكن لم تكن هذه الظواهر فقط هى المسئولة عن المجاعات ، ولكن كان للضرائب العينية الباهظة التى كانت تفرضها الباكفو دور فى حدوث المجاعات وكذلك لتحكمها المبالغ فى التجارة والتجار، وكذلك لإلقائها بعبء المشاكل والأزمات الاقتصادية والسياسية على كاهل الفلاحين.

٣- أزمة السفينة موريسون :

لم يكد يمر سوى أربعة أشهر فقط على ثورة هيهاتشيرو إلا وتلقت الباكفو ضربة أخرى تمثلت فى قدوم السفينة التجارية الأمريكية موريسون فجأة إلى خليج أوراجا (Uraga) الواقع فى محافظة كاناجاوا، وهذه السفينة كانت تتبع شركة تجارية مملوكة لتاجر كبير من نيويورك،

ومقرها فى كانتون بالصين، وفى جزيرة ماكاو استجابت لرجاء سبعة من البحارة اليابانيين الذين كانوا قد تاهوا فى المحيط الهادى وحملتهم وحملت معهم فى ذات الوقت الكثير من المنسوجات والبضائع الأخرى واتجهت إلى اليابان راجية أن تتبادل هذه البضائع مع الباكفو فى مقابل بضائع يابانية.

ولكن جاء الرد اليابانى على عكس ما تمنت هذه السفينة تماما، إذ إنها تلقت ضربات من مدافع طابية أوراجا تطبيقا لأمر كان قد صدر قبل عام واحد من قدوم السفينة أى فى عام ١٨٣٦م، وهو أن يتم إطلاق النيران على أية سفينة أجنبية تتقدم نحو الموانئ اليابانية، ولما يأست السفينة من الرسو فى ميناء أوراجا توجهت نحو ميناء كاجوشيما لعلها تستطيع تسليم البحارة السبع الذين حملتهم معها من ماكاو، ولكنها لم تسلم أيضا فى كاجوشيما من طلقات نيران حاميتها، فلم تجد أمامها سوى العودة إلى ماكاو مرة أخرى تجر أذيال الخيبة فهى لم تستطع تحقيق الأمل فى التبادل التجارى مع اليابان الذى كان يراود الكثير من السفن التجارية الغربية، ولا هى أيضا استطاعت أن تسلم البحارة السبعة التائهين لبلدهم.

وفى العام التالى ١٨٣٨م أُبلغت الباكفو عن طريق الوكالة الهولندية أن هذه السفينة تتبع القوات البحرية الإنجليزية، وكان هذا بالطبع خطأ من جانب الوكالة الهولندية، وعليه بدأت حكومة الباكفو تتخذ إجراءات لحماية سواحلها بجدية، وكذلك أجرت الباكفو مناقشات جادة، فيما يمكن اتخاذه من إجراءات إذا ما عادت مثل هذه السفن مرة أخرى إلى سواحل اليابان، ولكن من خلال هذه المناقشات ظهر صراع بين وجهتى نظر فيما يخص كيفية التعامل مع السفينة موريسون، الأول

ويمثلـه مجلس المتناقشـين ومفاده أنه يجب احـترام أمر إطلاق النيران على السفن الأجنبية حال قدومها أو اقترابها من سواحل اليابان والرأى الآخر ويمثله عدد من علماء العلوم الهولندية ويتزعمهم هاياشى جوسَّاى Hayashi Jussai (١٧٦٨م – ١٨٤١م) ومفـاده أنـه يجب على الباكفو تسـلم المواطنين اليابانيين السـبعة الذين جاءت بهم السفينة التجارية الأجنبية لتسـلمهم للسـلطات اليابانية، ولم تتوقف محاولات المعارضة على الشـكل الشـفوى بل أصدر عدد من هؤلاء المعارضين كتبا وعرائض ينتقـدون من خلالها سياسـة الباكفو فى تعاملها مع السـفن الأجنبية والتـى تأمر بإطلاق النيران عليهـا، وأعربوا كذلك عن قلقهم العميق من اتخاذ مثل هذه السياسـات على مسـتقبل اليابان، وعليه قامت الباكفو بمعاقبة عدد من هؤلاء المعارضين لسياستها وعلى رأسهم واتانابى كازان Watanabe Kazan (١٧٩٣م – ١٨٥٦م) فـى الفترة الأخيرة من عصر إيدو الشهير.

هكذا شـكلت أزمة السـفينة موريسـون ضغطا خارجيا على الباكفو سـبب لها الكثير من القلق كما شـكلت ثورة هيهاتشـيرو ضغطا داخليا عليها، ولكن مثل هذه الضغوط أحدثت حالة من الجدل السياسى سوف يكـون له أثرا كبيرا على سياسـة العزلة التـى اتخذتها حكومة الباكفو لسـنوات طويلة، وكانت النتيجة المباشـرة لمثل هذه الصدمات الداخلية والخارجية أن قامت حكومة الباكفو بعد وفاة الشـوجون إيينارى وتولى الشـوجون الثانى عشر إيبوشـى بإصلاح تنبو (Tenpo Mokaikaku) وذلـك فى عام ١٨٤١م (٢ من تنبو) على يد المستشـار ميرونو تاداكونى Mizuno Tadakuni (١٧٩٤م – ١٨٥١م) والذى حاز على ثقة الشوجون الثانى عشر إيبوشى وسوف نتحدث عن إصلاح تنبو بالتفصيل فيما يلى.

٤- الإيفاقة الأخيرة للباكفو – إصلاح تنبو

بعد أن أمضى الشوجون الحادى عشر إيينارى فى منصب الشوجون خمسين عاما وبعد ذلك أربع سنوات فى منصب الشوجون المتقاعد Ōgosho والذى مارس من خلاله سلطاته أيضا حتى توفى فى عام ١٨٤١م، وبذلك يكون إيينارى هو من أمضى أطول فترة فى منصب الشوجون من بين الخمس عشرة شوجونا الذين حكموا اليابان فى عصر إيدو، ولكنه فى آواخر أيامه واجهته مشاكل عديدة كان أكثرها تعقيدا وشدة مجاعة تنبو الرهيبة التى تحدثنا عنها للتو، وكذلك ثورات وهوجات الفلاحين وأعمال السلب والنهب التى كانت تجرى فى المدن وكذلك حادث السفينة موريسون، ولم تبخل الأحوال الخارجية بنصيبها فى تعكير صفو الأمور فى اليابان، فها هى ذى حرب الأفيون تجتاح الصين التى لاقت بسببها أهوالا كبيرة، وخرجت إنجلترا من هذه الحرب منتصرة فأصبحت بقوتها تهدد اليابان أيضا، كل هذه الأمور والأحداث جعلت الباكفو تفكر بجدية فى تغيير سياستها الداخلية حتى تستطيع أن تواجه الأوضاع الداخلية والخارجية على السواء.

وربما كان موت إيينارى وتخلص الباكفو من سطوته حتى بعد تقاعده فلاحت بذلك الفرصة للمستشار ميزنو تاداكونى لكى يشرع فى تطبيق إصلاح جديد، واضعا فى اعتباره إحياء سياسة كيوهو وكانسى أو بالأحرى هذين الإصلاحيين الذين سبقا عصره الأول من عام ١٧١٦م – ١٧٤٥م والثانى من عام ١٧٨٧م – ١٧٩٣م وبالفعل تم إصدار أمر التقشف الذى يلزم المواطنين بالاقتصاد فى كل مجالات الحياة تقريبا، فمثلا ممنوع تناول الأطعمة غالية الثمن سواء كانت مأكولات عادية أو حلوى ،

وكذلك ممنوع ارتـداء الملابس التى تبدى نوعا من الرفاهية، وتم معاقبة التجـار الذين يبيعون بشـائر الفاكهة والخضراوات وذلـك لأنها تكون فى العادة غالية الثمن، وتم كذلك منع الظهور بتسـريحات شـعر معينة التى تظهر أيضا الرفاهية والثراء وكانت السـيدة التى يتم ضبطها بهذه التسـريحة تعاقب بالسـجن مائة يـوم وكذلك يتم حلق شـعرها تماما، وحتى لا يتمتع أهل إيدو بمشاهدة مسرحيات الكوبوكى وينفقوا أموالهم مـن أجل ذلك تم نقل مكان عرض هذه المسـرحيات المحببة لليابانيين إلى مـكان آخـر بعيد فى ضاحية من ضواحى إيـدو، بل وتم طرد ممثل شـهير لهذه المسـرحيات إلى خارج مدينة إيدو تماما، وإلى جانب ذلك تم منع إنشـاء قاعات الموسيقى، ولم تسلم الكتب والنشر من هذا التقييد فكان لابد من فحصها بشـدة ومنع إصدار ما لا يروق للباكفو منها، وقد عاقبت الباكفو مؤلف روايات الحب تامى ناجا تشونسـى Tamenaga Shunsui (١٧٩٠م – ١٨٤٣م) وكذلك الكاتب ريوتى تانيهيكو Ryutei Tanehiko (١٧٨٣م – ١٨٤٢م) بسـبب رواياتهما التى تحكى قصص العشق والهوى لأهل إيدو وذلك لأن تلك الروايات تؤثر بشكل سلبى فى عادات وسلوكيات أهل إيدو بشكل خاص وأهل المدن اليابانية كلها بشكل عام.

ومـن ناحية أخرى قامـت الباكفو بإصدار قانون العـودة الذى يلزم الفلاحين الذيـن هجروا قراهم إلى المدينة بالعودة إلى ريفهم مرة أخرى، وكان هدف الباكفو من ذلك إنقاص عدد سكان إيدو الذى زاد زيادة كبيرة حتى أصبحت مدينة مليونية بل أصبحت أكبر مدينة فى العالم فى عدد سـكانها كما ذكرنا آنفا، وقد اسـتثنت الباكفو من بين هؤلاء المهاجرين من طالت عيشـتهم بمدينة إيدو وكونوا عائلات اسـتقرت بالمدينة، أما

غـير هؤلاء فعليه العودة إلى قريته لفلاحـة أرضه ومن كان يخالف هذا القانون من الفلاحين كان مصيره السجن. كذلك أصبح على هؤلاء الذين يريدون الذهاب للمدن من أجل العمل أن يحصلوا على تصريح من حاكم منطقته. ولكن هذا الإجراء الإصلاحى فشـل أيضا بسـبب مجاعة تنبو الكبرى وذلك لأن الفلاحين لم يستطيعوا العودة لقراهم لاستحالة المعيشة بها.

ومن أجل خفض الأسـعار قامت الباكفـو بإلغاء نظام الطوائف الذى كان يمكن كل طائفة تجارية أن تتحكم فى أسعار السلعة التى تتخصص بها وتحتكرها صعودا ونزولا مما كان يسبب تذمر المواطنين وقيامهم فى بعض الأحيان بأعمال السلب والنهب. وسحبت الباكفو أيضا تراخيص السـفن التجارية التى كانت تجوب البحر بين أوساكا وإيدو. وقد كان اعتقاد المستشـار تاداكونى مبنيا على أنـه عندما يمنح الامتيازات التى كانـت بيد الطوائف للتجار العاديين ويكسـر احتكار أصحاب السـفن لحركة التجارة بين أكبر مدينتين فى اليابان فإن ذلك سـوف يؤدى إلى انسياب فى حركة تداول البضائع مما سيؤدى بالتالى إلى هبوط أسعارها. ولكن هذا الإجراء لم يحقق للمستشار تاداكونى ما هدف إليه ولم يحدث هبوط فى الأسـعار. وذلك لأن تغيير نظام البيع والشراء أدى إلى حدوث فوضى فى حركة التجارة أدت إلى تلك النتيجة السيئة.

ومن بين أسـباب قيام الفلاحين بثوراتهم وهوجاتهم سـبب غريب. ففى عـام ١٨٤٠م قامـت الباكفو بعمليـة انتقال للعائـلات الحاكمة بـين مقاطعات ثـلاث. فقد قامت بنقل عائلة ماتسـودايرا من مقاطعة كاواجوى Kawagoe (محافظة سـايتما) إلى مقاطعة شـونای Shōnai

(محافظة ياماجانا) المتميزة بثرواتها وخاصة الأرز واضعة فى اعتبارها أن عائلة ماتسودايرا هم أصهار الشوجون إييناري فيصبحون بذلك مميزين عن أغيارهم من الدايميوات، وقامت بنقل عائلة ساكاى من مقاطعتهم الأصلية شوناى إلى مقاطعة ناجا أوكا Nagaoka وعائلة ماكينو Makino من ناجا أوكا إلى مقاطعة كاواجوى وهذا ما أطلق عليه "التغيير الثلاثى للمقاطعات الخاضعة Sanpō Ryōchigae".

وما أن عرف الفلاحون فى مقاطعة شوناى بهذا القرار إلا وثارت ثائرتهم بكل العنف وذلك لأنهم توقعوا أن يفرض عليهم الحاكم الجديد ضرائب باهظة وأن يعاملهم معاملة سيئة، وقاموا بتقديم عرائض لرفض هذا القرار، فلم تجد الباكفو أمام هذه المعارضة الشديدة إلا أن تراجعت عن قرارها هذا، وهنا يجب الإشارة إلى إيجابية الفلاحين نحو ما شعروا نحوه من غبن وظلم لهم، وذلك ليس فى هذا الموقف أو هذه الحادثة فقط بل فى مواجهة مواقف وأحداث أخرى عديدة طوال عصر إيدو، ويجب الإشارة أيضا إلى اهتزاز حكم الباكفو من خلال ضعف تأثيرها فى الفلاحين وظلت تسير من ضعف إلى ضعف حتى أتت نهايتها بعد هذه الحادثة بأقل من ثلاثين عاما.

وفى سبتمبر ١٨٤٣م (١٤ من تنبو) وفى إطار سياسة الإصلاح الذى حاول ميزونو تاداكونى تطبيقها أصدرت الباكفو آخر قرارات هذا الإصلاح وهو مصادرة الأراضى المملوكة للدايميوات وكبار المحاربين (الهاطاموطو) التى تقع حول قلعتى إيدو وأوساكا فى محيط ٤٠ كيلو مترا من كل اتجاه، ووضع هذه الأراضى تحت الإدارة المباشرة للباكفو، وكان فى

اعتقاد الباكفو أنها بتطبيق هذا الفرمان يمكن تحقيق الأهداف التالية :

١ – تحقيق مكاسب اقتصادية كبيرة للباكفو نظرا للتطور الزراعى والتجارى الذى تم فى الأراضى والمناطق المحيطة بقلعتى إيدو وأوساكا.

٢ – إمكان احتواء المشاكل التى يتسبب فيها الدايميوات والهاطاموطو إذا ما تم ضم الأراضى الصغيرة التى فى حوزتهم.

٣ – إمكانية تقوية التحصينات حول شبه جزيرة ميئورا (Miura) وبوصو (Boso) واللتين تقعان فى مدخل خليج إيدو.

ولكن الباكفو لم تكن لتصادر هذه الأراضى دون إعطاء المتضررين من الدايميوات والمحاربين تعويضا عن هذه المصادرة. ولكن هذا التعويض من أراضى أخرى لم يمنع المعارضة الشديدة لهذا الفرمان، وأمام هذه المعارضة الضارية تراجعت الباكفو عن تنفيذ هذا القرار.

وفى الحقيقة كانت الباكفو قد أصدرت مثل هذه الفرمانات قبل ذلك عدة مرات، وامتثل الدايميوات لأوامر الانتقال من مكان لمكان آخر ولم تكن هناك معارضة تذكر، ولكن فى هذه المرة لاقت الباكفو معارضة شديدة وكان فى تراجعها معنى كبير، ألا وهو سقوط هيبتها وسطوتها. وعليه فقد تحمل مسئولية هذا التراجع المستشار تاداكونى على عادة اليابانيين منذ القدم فى تحمل مسئولية إخفاقاتهم وعليه فقد أذعن لأمر إقالته من منصب المستشار فى نفس الشهر الذى أصدر فيه فرمان المصادرة أى فى سبتمبر من عام ١٨٤٣م، ثم تولى منصب المستشار بدلا منه أبى ماساهيرو Abe Masahiro (١٨١٩م – ١٨٥٧م) الذى سوف يكون له دورا كبيرا فى تغيير سياسة اليابان نحو الدول الأجنبية فيما بعد.

وهكذا كان فرمان مصادرة أراضى الدايميوات والمحاربين الكبار ذات القيمة العالية هو آخر حلقة فى حلقات إصلاح تنبو، ولكنه كان كالقشة التى قصمت ظهر البعير الذى قضى على المستشار ميزونو تاداكونى المسئول عن تنفيذ هذا الإصلاح، والحقيقة أن هذه الثورة الإصلاحية كما فشلت فى تنفيذ أمر المصادرة فشلت أيضا فى عدة أمور أخرى مثل فشلها فى تطبيق أمر عودة الفلاحين إلى قراهم من أجل إعادة الحياة للقرى التى خربت بسبب غيابهم وبسبب المجاعة، وكذلك فشلت فى خفض أسعار مختلف السلع على الرغم من حل نظام الطوائف التى كانت تتحكم فى الأسعار عن طريق احتكارها لهذه السلع.

ولكن هناك سؤال قد يجول فى ذهن القارئ الكريم، وهو هل هذه الثورة الإصلاحية لم تنجح فى تحقيق أى إنجاز يذكر، بلى فقد كان لهذه الثورة عدة إنجازات، فقد حققت إنجازا لا بأس به فى مجال تقوية دفاعات البلاد، فقد استدعى تاداكونى الباحث فى العلوم الهولندية تاكاشيما شوهان Takashima Shūhan (١٧٩٨م – ١٨٦٦م) المتخصص فى علوم المدفعية من موطنه فى ناجاساكى إلى عاصمة الباكفو إيدو فى عام ١٨٤١م. وقام هذا العالم الفذ بتدريب الجنود على استعمال المدسات وكذلك على استعمال المدافع الحديثة بهدف حماية البلاد من أى عدوان خارجى.

ولعلنا ندرك من خلال هذه الخطوة الهامة التى اتخذها تاداكونى أنه أراد حماية البلاد من الغزو الخارجى خاصة بعد حدوث أزمة السفينة الأمريكية موريسون وكذلك بعد نشوب حرب الأفيون فى الصين، وهو بذلك أراد تحقيق نهضة أو إصلاح عسكرى كما أراد تحقيق إصلاح

اقتصـادى وسياسـى بصرف النظـر عن مدى نجاحه فـى كل من هذه الإصلاحـات ولذلك اعتبرت ثورة تنبـو الإصلاحية الإيفاقة الأخيرة فى عصـر إيدو أو النموذج المصغر إلى حدٍ كبير لثـورة ميجى الكبرى والتى سوف تحدث بعد حوالى خمسة عشر عاما.

٥- الإصلاح فى المقاطعات الأخرى :

لم تكن ثورة إصلاحية قاسية مثل ثورة تنبو ضرورية فقط للباكفو وفى محيـط إيدو ولكن هذا كان ضروريا جدا فى كل مقاطعات اليابان أيضا، فقد وصل الوضع المالى والاقتصادى إلى أقصى درجة من السوء إلى حد أن ديون بعض المقاطعات كانت تصل إلى عشرين وفى أحيان أخرى ثلاثين ضعف دخلها العام، وهذا أدى إلى عدم اسـتطاعة هذه المقاطعات تسديد ديونها للتجار وغيرهم من المواطنين، ومن ثم لم تسـتطع تدبير شـئونها المالية إلا بشق الأنفس وذلك عن طريق طبع نقود خاصة بالمقاطعة أو أخذ نسبة من دخل أراضى الأتباع أو عطايا المواطنين.

ومـن مظاهر الاقتصاد المتردى أننا نجد أن عدد السـكان قد تناقص فـى عام ١٨٤٦م بنسـبة ٣٣٪ عمـا كان فى عـام ١٧٢١م فى مقاطعة شيموتسـوكى Shimotsuke (محافظـة إيباراكـى) وبنسـبة ٢٧٪ فى مقاطعـة كوزوكى Kōzuke (محافظة جونما) وبنسـبة ١٨٪ فى مقاطعة موتسـو Mutsu (محافظة أوموري وإيواتى). وهـذا النقصان له بالطبع علاقة وثيقة بقلة الإنتاج الزراعى وبوار الأراضى.

ولما كان من غـير الممكن الاعتماد على الضرائب العينية التى تفرض على الفلاحين أكثر من اللازم وذلك خشـية الثـورات والهوجات ولأن هـذا النبع كان قد أوشـك علـى النضوب، فكان لابد مـن البحث عن

وسائل أخرى تُدر دخلا متجددا، ووجدت المقاطعات ضالتها بالفعل فى استخدام إنتاج القطن والسكر المزدهرين فى نواحيهم وذلك فى صناعات أخرى تساعد الفلاحين ، وكانت أكثر مقاطعتين نجاحا فى تطبيق الإصلاح الاقتصادى تشوشو Choshu (محافظة ياماجوتشى) وساتسوما (محافظة كاجوشيما) وهاتان حققتا نجاحا ملموسا فى هذا الإصلاح مما جعلهما يلعبان دورا هاما على مسرح السياسة فى عهد ميجى الذى يأتى فى عقب عصر إيدو الذى استمر أكثر من مائتين وستين عاما. وكما أسلفنا القول فقد كانت كلمة السر فى زيادة الدخل فى هاتين المقاطعتين هو اعتمادها على الصناعة، واللجوء إلى مواد أخرى غير الأرز فى تحقيق صناعات جديدة واعدة، ومن حسن الحظ فقد تمتعت مقاطعة تشوشو بوفرة فى إنتاج الورق والشمع وبذور اللفت والقطن والنيلة والملح وغيرها من المنتجات التى استطاعت استخدامها استخداما جيدا عن طريق الاحتكار وفرض الضرائب مما ساعدها على زيادة بل ومضاعفة دخلها.

ولم تتوقف جهود مقاطعة تشوشو على استخدام المنتجات المحلية من أجل زيادة دخلها بل قامت بوسائل أخرى من أجل ذلك فوضعت العديد من موظفيها فى ميناء شيمونوسيكى Shimonoseki، وقامت بتقديم الخدمات للسفن التجارية الذاهبة إلى أوساكا وذلك بمدها بالنقود أو المخازن، وبذلك استطاعت تشوشو استغلال الموقع الممتاز لميناء شيموتوسيكى الذى يعد مدخلا هاما إلى بحر سيتو الداخلى، أما مقاطعة ساتسوما فقد كانت مقاطعة ضخمة ولكنها فى فترة بونسى Bunsei (١٨١٨م – ١٨٣٠م) اقترضت مبلغا كبيرا من المال وصل إلى نصف مليون ريو (عملة تساوى الين تقريبا) من تجار المدن الثلاث الكبرى إيدو

وأوساكا وكيوطو، ولكى تتخلص المقاطعة من عبء هذا الدين قررت أن تعيد هذا المبلغ الكبير على أقساط تستمر لمدة مائتين وخمسين عاما، وكان من فكر فى هذه الفكرة الظالة إلى حد كبير بطل عملية الإصلاح فى ساتسوما وهو زوشو هيروصاطو Zusho Hirosato (١٧٧٦م – ١٨٤٨م). وهو سياسى عصامى بدأ كمحارب من الطبقة الدنيا، وكان مسئولا عن صنع الشاى للمحاربين الأعلى رتبة، ولكن بذكائة ودهائه استطاع أن يصبح ملازما لحكام المقاطعة، وفى الحقيقة لم يكن غير هذا السياسى الذى صعد من أدنى درجات المحاربين ومن له تجربة الحياة مع أوضاع الناس المختلفة من يستطيع أن ينفذ مثل هذه الطريقة فى رد الدين على مدى هذه الفترة غير المعقولة، أو بالأحرى فقد حاول بطريقة غير مباشرة أن يسقط الدين على المقاطعة وبالطبع لم يكن للتجار الدائنين أن يوافقوا على مثل هذه الطريقة فى دفع الدين فما كان من هيروصاطو إلا أن أخذ صكوك الدين من التجار وأحرقها كلها أمامهم، ولم يكن أمام التجار إلا أن استسلموا للأمر الواقع .

لم تكن ساتسوما تتمتع بمثل ما تتمتع به مقاطعة تشوشو من الموارد الزراعية التى تحدثنا عنها للتو، ولكنها كانت تشتهر بمحصول وافر من قصب السكر وهذا لموائمة المناخ الحار بها لهذا النوع من الزراعة وأجبرت المزارعين على زراعته فى ثلاث جزر تتبع هذه المقاطعة، وقد قامت المقاطعة باحتكار إنتاج السكر وكانت تقوم ببيعه فى أوساكا وإيدو وتحصل من وراء ذلك على أرباح كبيرة، ولعلنا ندرك مدى ضخامة الأرباح التى جنتها ساتسوما من تجارة السكر عندما نعرف أن معظم السكر المستهلك آنذاك كان من إنتاج هذه المقاطعة، وبفضل هذه الأرباح

الضخمة التى حصلت عليها ساتسوما استطاعت صناعة المدافع وإضاءة المقاطعة بمصابيح الغاز، وبذلك نشأت حضارة وثقافة قويتان بالمقاطعة مما جعلها تحتل مكانة قوية فى صنع مصائر اليابان فى العصر التالى وهو عصر ميجى كما أسلفنا القول. ومن الجدير بالذكر أن الذى قام بقيادة عملية الإصلاح فى ساتسوما كان المحارب مورانا كيوكازى وذلك منذ عام ١٨٣٨م (١٧٨٣م – ١٨٥٥م) وفى مقاطعات أخرى مثل صاجا Saga وطوسا Tosa قامت ثورات إصلاحية أخرى حققت نجاحات لا بأس بها فى إنعاش اقتصادها.

ففى مقاطعة هيزن Hizen (صاجا) قام حاكمها نابى شيما ماسانائو Nabeshima Masanoo (١٨١٤م – ١٨٧١م) بمجهودات كبيرة من أجل الإصلاح الاقتصادى عن طريق استخدام الطاقات البشرية والماهرة وكذلك عن طريق إقامة صناعات تنموية، وكذلك قام بإنشاء قوات عسكرية قوية على النسق الغربى، وفى المجال الزراعى قام بإصلاحات ملموسة وذلك عن طريق حماية الفلاحين بإعفاء صغار المزارعين من الإيجارات الزراعية وإيقاف دفع أرباح ديونهم، كذلك عمل على عدم تغول الملاك الكبار على صغار المزارعين وذلك بعدم تمكينهم من تملك الأراضى بشكل مجحف وذلك للحفاظ على الفلاحين البسطاء بل إنه حاول تنفيذ سياسة إصلاحية بإعادة توزيع الأراضى على الفلاحين لتحقيق شىء من المساواة، وفى مجال التجارة عمل نابى شيما على احتكار إنتاج المقاطعة من البورسلين الذى تشتهر به مقاطعة هيزن (معظمها محافظة صاجا). كذلك أنشأ هذا الرجل العظيم أول فرن عال فى اليابان، ومصنع لإنتاج المدافع وبذلك استطاع تقوية سطوة المقاطعة

ورفع من شـأنها بين المقاطعات الأخرى، وبفضل هذه الجهود الجبارة استطاع هـذا الرجل أن يحفظ لنفسه مكانا بارزا فـى حكومة ميجى الإصلاحيـة التـى تلت عصر إيدو، ولكنه لم يلبـث أن توفى بعد أربع سنوات فقط من بداية عصر ميجى وذلك فى عام ١٨٧١م (٤ من ميجى).

أمـا فى مقاطعة طوسـا (محافظة كوتشـى الحالية) فقـد تم توظيف جماعـة الإصلاح التى تدعى «جماعة السـمك اللسـاع» (Okazegumi) والذين عملوا على إصلاح اقتصاد المقاطعة وإعادة بنائه عن طريق سياسـة التقشـف، وفى عهد حاكم المقاطعة ياما أوتشى طويوشيجى Yamouchi Toyoshige (١٨٢٧م – ١٨٧٢م) تم صنع المدفع وكذلك إنشاء الطابيات مـن أجل تقوية وتدعيم قوات المقاطعة المسـلحة، ولكن فى مقاطعة ميتو Mito (مدينـة فى محافظة إيباركى الحالية) لم يكن حال الإصلاح على مـا يـرام وذلك علـى الرغم من جهـود حاكمها طوكو جـاوا نارى آكى Tokugawa Nariaki (١٨٠٠م – ١٨٦٠م) وإنشائه لفرن عال وغيره من مظاهـر القوة الاقتصادية وكان ذلك الإخفاق بسـبب الصراع الداخلى فى هذه المقاطعة.

وكانت هنـاك بعض المحاولات الإصلاحية أيضـا ولكن على نطاق أقل من تشوشـو وساتسـوما مثل مقاطعة أواجيمـا (منطقة فى محافظة إيتشـى)، والذى قام به حاكمها داتى مونى نارى Date Munenari (١٨١٨م – ١٨٩٢م) وفـى مقاطعـة فوكـوى (إتشـيزن) والـذى قاد إصلاحها حاكمها ماتسودايرا يوشـى ناجا Matsudaira Yoshinaga Naga (١٨٢٨م – ١٨٩٠م)، وقـد قامت وغيرها مـن المقاطعات بالتعاون مع تجار المدن الثلاث الكبرى من أجل حركة تجارية نشـطة، كذلك واجه

رجـال المقاطعة الأقوياء مشـكلة ديون المقاطعة بطريقـة إيجابية وقاموا بتنظيمها وجدولتها بطريقة متشـددة ومتعسفة، وإلى جانب ذلك قامت مقاطعة فوكوى بنشـاط واضح فى التجارة والصناعة هادفة من وراء ذلك إنعاش اقتصادها وإنعاش الحياة بشـكل عام فـى المقاطعة، وقد خطت أيضا بخطى واثقة نحو تقوية التسلح مثلها مثل المقاطعات الأخرى التى تحدثنا عنها للتو، ولذلك تسمى هذه المقاطعات بالمقاطعات القوية.

وفى الحقيقة لم تشـذ الباكفو بنفسها عن هذا الخط الداعم للتحديث وذلـك فـى أواخر أيامهـا. فقد أصـدرت الأمر لأحد مسـئوليها لكى يؤسـس فرنا عاليا وكذلك تم إنشـاء مصنع للحديد فى منطقة يوكوسوكا Yokosuka تحت إشراف مهندسين فرنسيين.

٦ - سنوات الباكفو الأخيرة

رأينـا كيـف بدأت قواعـد الباكفو فى التصدع منذ مجىء السـفينة الأمريكيـة موريسـون مرورا بثـورات وهوجـات الفلاحين ثـم انتهاء باهتـزاز صورتها عندما تراجعت عن فرمانها بمصادرة الأراضى الخاصة بالدايميـوات وكبار المحاربين التى تقع حول قلعة إيدو وقلعة أوسـاكا وذلك فى سبتمبر ١٨٤٣م واضطرار صاحب هذه الفكرة فى الاستقالة بناء على أمر الباكفو.

وفـى ١٨٤٤م تلقـت الباكفو خطابـا من ملك هولنـدا ناصحا إياها بفتح موانئها ومرافئها أمام السـفن الغربية بشـكل عام حتى لا تتعرض لمـا تعرضـت له الصـين من هزيمة أمـام إنجلترا جراء حـرب الأفيون (١٨٤٠م – ١٨٤٢م) والتـى أدت بالتالى إلى اقتطاع جزيرة هونج كونج منها، وما لبث أن جاء قائد الأسـطول الأمريكى فى شـرق الهند وكان

يدعى بيدل Biddle (١٧٨٣م – ١٨٤٨م) إلى ميناء أوراجا اليابانى وذلك فـى عام ١٨٤٦م، وتوالت الضغـوط الأجنبية من كل ناحية على اليابان لفتح أبوابها أمام الغرب.

وبعد بيدل بسـنوات قليلة جاء الأدمـيرال البحرى الأمريكى بيرى Matthew Galbraith Perry (١٧٩٤م – ١٨٥٨م) إلى ميناء أوراجـا أيضاً فى يونيو ١٨٥٣م ويناير ١٨٥٤م ضاغطا بل مهددا اليابان بعواقب الأمور إذا لم تفتح أبوابها أمام التعامل مع الغرب وبالفعل نجح فى عقد معاهدة كانجاوا مع اليابان التى تنص على عدة بنود كلها تتعلق بإعطاء الأمريكان امتيازات خاصة فى التعامل مع اليابان، ويمكن للقارئ الكريم أن يعـود لكتابنا عن عصر ميجى والذى أفردنا فيه الفصل الأول بأكمله للحديث عن الفترة السابقة على عصر ميجى، وسوف يجد الحديث عن هذه الفترة بالتفصيل بما فى ذلك معاهدة كاناجاوا وما يلى من الحديث عن المعاهدات التى عقدتها اليابان مع مختلف الدول الغربية.

وكذلـك عن إصـلاح أنسـى (Ansei Nokaikaku) الذى قامت به الباكفـو فى عـام ١٨٦٠م، وأيضا الحديث عن محاكمة أنسـى الكبرى وأثرها فى سياسـة الباكفو، وسوف يجد القارئ الكريم فى الفصل الأول مـن كتابنا عن عصـر ميجى حديثا عن إصلاح بونكيـو الذى قامت به حكومة الباكفو فى عام ١٨٦٢م، والذى قامت من خلاله الباكفو بإدخال إصلاحـا فى نظام الدوام الخاص بالديميوات وإصلاح النظام العسـكرى بفصـل الجيش البرى عـن الجيش البحرى، وجعل لـكل منهما قيادة خاصة به وإرسـال الضباط للدراسة فى الغرب وخاصة فى هولندا، وإلى جانب ذلك تم إدخال النظم الحديثة فى التعليم لليابان .

كذلك تميزت السنوات الأخيرة من عصر إيدو بوقوع عدة حوادث كان أشهرها حادثة ناماموجى ، وحادثة محاولة اغتيال القنصل الإنجليزى وكلاهما حدث فى عام ١٨٦٢م. وعليه قامت حربا بين إنجلترا ومقاطعة ساتسوما (Satsuei Sennō) وذلك فى مايو ١٨٦٣م وما ترتب على هذه الحرب وانتصار إنجلترا فيها من آثار سيئة فى ساتسوما ، وكذلك ما ترتب عليه من اتخاذ ساتسوما لعدة إجراءات لمواجهة الخطر الغربى ، فكانت من أكثر المقاطعات إدخالا للعلوم العسكرية الغربية فيها . فكانت هذه الحرب على الرغم من آثارها السيئة السبب الرئيسى فى تقوية تلك المقاطعة الطموحة منذ وقت مبكر . وكأن لسان حالها يقول « رب ضارة نافعة ».

كذلك نجد الحديث بالتفصيل فى ذلك الفصل عن المواجهة بين مقاطعة تشوشو (محافظة ياماجوتشى وبين السفن الأجنبية ومن بينها السفن الأمريكية والفرنسية والهولندية . ولكن مقاطعة تشوشو لم تسلم من انتقام الدول الغربية الذى جاء فى شكل هجوم رباعى من إنجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا . وأستطاعت قوات هذه الدول إحتلال طوابى مدينة شيموتوسيكى وأحدثت دمارا رهيبا بالمدينة .

والغريب أن هزيمة مقاطعة تشوشو أمام الدول الغربية كانت إحدى الأسباب التى أدت فى النهاية إلى سقوط الباكفو، وذلك لأن هذه المقاطعة أخذت على عاتقها بعد أن ذاقت مرارة الهزيمة تقوية قواتها المسلحة إلى أبعد حد فعملت على الحصول على الأسلحة بشتى الطرق وكانت عدوتها اللدود القديمة ساتسوما هى من ساعدتها على الحصول على هذه الأسلحة ، وفى أول مواجهة لتشوشو أمام جيش الباكفو عام ١٨٦٤م

لم تستطع التغلب على جيش الباكفو خاصة وأن الباكفو استنفرت قوات ٣٦ مقاطعة معها، وكان ذلك بعيدا عن أرض المقاطعة، وفى أرض المقاطعة نفسها قام أسطول شيكوكو بضرب ميناء شيمونوسيكى مما أدى إلى استسلام تشوشو وصعود أسهم الجناح المحافظ الموالى للباكفو، ولكن لم يلبث جيش الباكفو أن انسحب بحلول شهر ديسمبر ١٨٦٤م، وفى عام ١٨٦٥م وقعت المواجهة الثانية بين تشوشو والباكفو وذلك بعد أن استطاع الجناح المناوئ للباكفو وجناحها فى المقاطعة إسقاط الجناح الموالى للباكفو وعندئذ قررت الباكفو الحرب ضد تشوشو ولذلك تحرك الشوجون الرابع عشر إييموتشى Iemochi (١٨٤٦م – ١٨٦٦م) بجيشه نحو أوساكا ودخل قلعة أوساكا توطئة لمواجهة جيش تشوشو وفى هذه الأثناء تحالفت ساتسوما مع تشوشو سرا ثم بدأت الحرب بين الطرفين (Bakuchō Senso) فى يونيو ١٨٦٦م، وخلال شهرين من بعد بداية الحرب تلقت الباكفو عدة هزائم من جيش تشوشو. ولكنها لم تكن حاسمة، وفى أغسطس من نفس العام توفى الشوجون إييموتشى (Iemochi) فى قلعة أوساكا وبعد عشرة أيام فقط من وفاته أعلنت الهدنة بين الطرفين، وبعد تولى الشوجون الخامس عشر طوكوجاوا يوشى نوبو Takugawa yoshinobu (١٨٣٧م – ١٩١٣م) – آخر شوجون فى عهد إيدو– أعلن نهاية حملة الباكفو على مقاطعة تشوشو متخذا من وفاة الشوجون الراحل فرصة لاتخاذ هذا القرار، وكانت الباكفو على وشك تلقى هزيمة ساحقة شاملة، ولكن على أية حال فقد أظهرت هذه الحرب مدى الضعف والهوان الذى وصلت إليه الباكفو، وكانت من أكبر علامات زوال حكم أسرة الطوكوجاووا.

وإلى جانب اهتزاز صورة الباكفو أمام أعين عامة اليابانيين كان للأحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى سادت البلاد أثرها البالغ فى حدوث الكثير من الثورات والهوجات التى عمت أنحاء البلاد حتى إن عدد الثورات التى حدثت فى عام ١٨٦٦م فقط وصل مائة وثمانين ثورة وهوجة وهو يمثل بذلك أكبر عدد للثورات فى عهد إيدو بأكمله، وهذا بالطبع مثل ضغطا متزايدا على الباكفو، وسوف يكون أيضا أحد العوامل التى سببت سقوط الباكفو.

ولكن لوحظ على هذه الثورات التى قامت ضد الباكفو فى السنوات الأخيرة من عمرها أنها لم تقم بسبب الأحوال السيئة التى آلت إليها البلاد أو للتعبير عن غضب بسبب الضرائب الباهظة فقط، ولكنها كانت تدعو فى ذات الوقت إلى إصلاح حال البلاد بصفة عامة، وكان تعبير (Yonaoshi) الذى كان يستخدمه الثوار أبلغ دليل على ذلك، وهذه العبارة تعنى إصلاح البلاد.

ومما زاد الطين بلة بالنسبة للباكفو وفاة الإمبراطور كومى Komei Tenno (١٨٣١م – ١٩١٢م) وكان هذ الإمبراطور من أشد المعارضين لحركة إسقاط الباكفو (Tobaku Undo) وبذلك فقدت الحكومة العسكرية فى إيدو مؤيدا قويا لها، ثم تولى من بعد كومى ابنه الثانى ساتشى نوميا (Sachi no Mya) الذى تسمى بعد اعتلائه العرش باسم ميجى (١٨٥٢م – ١٩١٢م). وعلى أثر ذلك اشتدت الحركة المنادية لإسقاط الباكفو ولو باستخدام القوة المسلحة.

وإلى جانب تلك الحركات العنيفة التى واجهت الباكفو ظهرت أيضا محاولات سلمية فردية من أجل تغيير الأوضاع السياسية فى اليابان

بإحلال سلطات الإمبراطور التقليدية أو بالأحرى إعادة هذه السلطات إليه بدلا من الباكفو، وكان أشهر هذه المحاولات ما قدمه الوطنى الكبير ساكوموطو ريوما Sakamoto Ryōma (١٨٣٥م – ١٨٦٧م) فيما عرف بمبادئ السفينة الثمانية (Senchū Hassaku)، والتى كان أول مبدأ من مبادئها هو إعادة السلطات فى البلاد إلى البلاط الإمبراطورى (Taisei Hōkan) (يرجى العودة إلى كتاب تاريخ اليابان فى عصر ميجى)، وقد كتب ريوما مبادئ السفينة الثمانية هذه أثناء رحلته البحرية من ميناء ناجاساكى إلى العاصمة التقليدية كيوطو والتى تزيد المسافة بينها على الألف كيلو متر، وذلك فى يونيو ١٨٦٧م، ثم كان أحد أهم العوامل التى دفعت الشوجون الخامس عشر والأخير طوكوجادا يوشينوبو أن يقبل مبدأ إعادة السلطات إلى الإمبراطور وانتزاعها من الباكفو فى أكتوبر من نفس العام، وبعد ذلك بشهر واحد تم اغتيال البطل القومى ساكاموطو ريوما.

وفى الحقيقة أن الباكفو لم تستسلم بسهولة لأمر تركها السلطة، فبعد أقل من ثلاثة أشهر فقط من قبول الشوجون يوشينوبو التنازل عن الحكم وقع ما يمكن تسميته بدايات حرب البوشين (Boshin Senso) ، التى جرت بين جيش ساتسوما الموالى إلى الإمبراطور وجيش الباكفو البائدة، فى مدينتى طوبا وفوشيمى وذلك فى بداية شهر يناير ١٨٦٨م، ولكن جيش الباكفو تلقى الهزيمة أمام ما يسمى بجيش الحكومة الجديدة الذى كان عماده جيش ساتسوما.

ثم توالت حروب البوشين منذ يناير عام ١٨٦٨م وحتى مايو ١٨٦٩م، وذلك بدءاً بحروب طوبا وفوشيمى (يناير ١٨٦٨م) (مدينتان تقعان فى

العاصمة التقليدية كيوطو) مرورا بموقعة أوينو Ueno Sensō التى وقعت فى مايو ١٨٦٨م وهزم فيها جيش الحكومة الجديدة مجموعة من الساموراى الذين كانوا يؤيدون الباكفو، وقد تحصنوا بمعبد بوذى بأوينو ولم يصمدوا أمام جيش الإمبراطور سوى يوم واحد، ثم قامت عدة مواقع حربية ضد جيش الباكفو انهزم فيها جميعا إلى أن كانت آخر موقعة حامية الوطيس والتى حدثت فى مدينة هاكوداتى بجزيرة أزوتشى (هوكايدو) وذلك فى مايو ١٨٦٩م، واستسلم فى هذه الموقعة آخر فلول جيش الباكفو وبذلك انتهت حرب البوشين لتبدأ معارك أخرى خاض فيها جيش الحكومة ضد جهات أخرى غير فلول جيش الباكفو سوف يتعرف إليها القارئ الكريم فى كتابنا «تاريخ اليابان فى عصر ميجى».

* * *